قصّة المهنة

إبراهيم الأجرب

أذكر ذلك اليوم جيداً، إنه في الثلاثين من آب سنة 2002، حين تم تعييني في وظيفة معلم في مدرسة ذكور قبيا الثانوية، حينها انتابني مزيج من مشاعر الفرح للوظيفة الجديدة، وبخاصة بعد عامين من الانتظار، وبعض الخوف من وظيفة التدريس، لا أدري لماذا؟ كيف سأدخل المدرسة التي كنت فيها طالباً؟ الآن ادخلها ولكن كمعلم.

في هذه اللحظات، اقتحمت تساؤلات عدة رأسي، كيف سيكون يومي الأول؟ كيف سأتعامل مع زملائي في المدرسة؟ وكيف ستكون علاقاتي بهم؟ هل سأنسجم معهم؟ كيف سيكون المدير؟ وما هي ردة فعل الطلاب؟ هل سأكون معلماً ناجحاً؟ ... كلها أسئلة دارت في ذهني. تمنيت في البداية أني لو عينت في مدرسة غير مدرسة القرية التي أسكن فيها، لا أدري لماذا؟ ولكن هذا الشعور انتابني.

كان أول يوم دوام بالنسبة لي، حيث ذهبت إلى المدرسة سالكاً الطريق نفسه الذي كنت أسلكه وأنا طالب، ولكني هذه المرة أسير فيه وأنا معلم وليس طالباً. وكان تناهى إلى مسمعي بعض همسات الطلاب إنه الأستاذ الجديد، وهم يعرفونني لأني من القرية نفسها. دخلت المدرسة وأنا أشعر ببعض الرهبة والخجل نسبياً، صادفت بعض المعلمين في الممرات، سلمت عليهم، ثم اتجهت مباشرة إلى غرفة المدير، ولم أسال أحداً عنها؛ لأنني كنت أعرفها جيداً، وهي الغرفة نفسها التي كانت في السابق، لم تتغير إلا من بعض الإضافات البسيطة. استقبلني المدير وبعض المعلمين ودار حديث قصير في البداية، وأسدى المدير والمعلمون القدامى بعض النصائح المعهودة التي اتضح فيما بعد عدم جدوى بعضها.

سار اليوم الأول بهدوء، حيث دخلت بعض الصفوف، كان الأمر غريباً بعض الشيء، تعرفت على الطلاب وعرفتهم على نفسي، ولم يكن الجميع يعرفني، ومضى اليوم.

في اليوم التالي، كان أول صدام لي مع المدير، فالمدير أسند لي تدريس مادة العلوم للصف الثامن، وهي ليست من تخصصي، مدعياً عدم وجود شخص آخر يدرسها، ورفضت في البداية، ولكن انتهى الأمر أني أخذت حصص العلوم. فدرست العلوم بالإضافة إلى مادة الرياضيات، وكان هذا في أول سنتين، وبعدها درست الرياضيات

والإدارة والاقتصاد فقط.

كيف تكون الحصة: بصراحة لا أستطيع أن أقرر إن كانت الحصة تدار بالشكل الأفضل أم لا. أشعر أحياناً أن الحصة حققت الأهداف المرجوة منها بشكل مرض، وأحياناً يراودني شعور بعدم الرضا عن الحصة، وعن الأساليب الّتي اتبعت في إدارتها.

إذا تطرقنا إلى الكيفية العملية التي أقوم بها بتدريس مادة الرياضيات؛ فإنها في الغالب تتم بالطريقة التقليدية المتعارف عليها، حيث تتم مناقشة المادة على السبورة أمام الطلاب، ومشاركة الطلاب في النقاش، مع استخدام بعض الوسائل التعليمية المناسبة لكل حصة أحياناً. بصراحة، أشعر أن هذا الأسلوب ليس سيئاً، وأنه مجدٍ أحياناً، ولكن أعتقد أننا بحاجة إلى أساليب وطرق مختلفة لتدريس مادة الرياضيات، وبخاصة أن هناك ضعفاً عند الطلاب بشكل عام، ورهبة من موضوع الرياضيات، ويجب أن يتجاوزوا هذا الخوف، فالأمر يستحق منا التجربة في أن نجرب أساليب تربوية مختلفة وحديثة بعيدة عن الأساليب التقليدية المعروفة.

حاولت جاهداً استخدام أساليب مختلفة نسبياً مثل التعليم ضمن مجموعات، ومشاهدة بعض الأفلام التعليمية، وكذلك تطبيق بعض الأنشطة الصفية والألعاب، مستفيداً من دورة أخذتها مع «مؤسسة الحق في اللعب»، ودورة في استخدام الدراما في التعليم، من خلال التحاقي بالمدرسة الصفية للدراما بإشراف مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وحقاً إذا لاقت البيئة المناسبة للتطبيق ستكون أسلوباً فريداً في التعليم.

بصراحة، تنتابني مشاعر مختلفة أثناء العمل، تارة أشعر بالرضا والفرحة والاستمتاع أثناء عملية التدريس، وأخرى ينتابني شعور بالإحباط بسبب الظروف العامة المحيطة بعملية التدريس. كثيرة هي المشاكل أو العقبات من شتى الجوانب التي تواجه المعلم أثناء عمله؛ سواء المرتبطة بالبيئة المحلية من أهال ومجتمع محلي، إذ يلاحظ أنهم غير مبالين كثيراً بالعملية التربويةّ، ولا تتم متابعة الطالب حق المتابعة إلا عند مراجعة أحد المعلمين عند شكوى أحد الطلاب، وغير ذلك نادراً ما نرى اهتمام أولياء الأمور بأبنائهم، أو العقبات من جانب القوانين العامة لوزارة التربية والتعليم، وبخاصة أسلوب مديرية التربية والتعليم، فهي لم تنصف المعلم، بل عمقت إحباطه، كذلك الأمر بالنسبة للإدارات المدرسة، فهي غير معنية براحة المعلم ومتابعة أموره، وإنما يعنيها أن تسير العملية التربوية بشكل رتيب وهادئ غير آبهة بالنتائج والآثار العامة على الطلاب.

هناك كثير من المواقف والقصص التي صادفتني أثناء عملي معلماً، حيث إنني من المعلمين الذين يحبون ممارسة النشاطات الاجتماعية واللامنهجية مع الطلاب؛ سواء في داخل المدرسة أو خارج المدرسة، وقد عملت على اصطحاب الطلاب وبعض الصفوف إلى زيارات بعض المؤسسات التعليمية مثل جامعة بيرزيت، حتى يتعرف الطلاب على نظام الجامعة، وكيفية الالتحاق بها، وكذلك على مرافق الجامعة. كما نظمت زيارة لبعض أماكن الترفيه القريبة من سكن الطلاب، أو في القرى المجاورة، وبعض المؤسسات الأهلية، حيث اصطحبت مجموعة من الطلاب إلى مركز المعلمين في نعلين التابع لمؤسسة القطان لعمل بعض النشاطات، وهذا ما ترك أثراً إيجابياً عند الطلاب. الآن وهم طلاب جامعات أو حتى بعضهم تخرج، عندما يصادفونني يذكرونني بتلك المواقف، ولم ينسوها حتى هذه اللحظة.

ومن الأشياء التي حدثت لي إثناء عملي كمعلم، أنه في العام 2006 تم نقلي، وبصورة مفاجئة، من المدرسة التي كنت أدرس بها إلى مدرستين مخلفتين؛ مدرسة كفر نعمة الثانوية، ومدرسة دير عمار الثانوية، بحجة أنهم بحاجة إلى أستاذ يدرس الإدارة والاقتصاد في المدرستين، ولكن، وبعد مراجعات كثيرة لمكتب التربية، وبعد شهرين، فقد عدت إلى مكان عملي الأصلي. وبصراحة، على الرغم من أن الأمر كان مزعجاً لي لصعوبة الذهاب إلى مدرستين وتغيير مكان عملي، فإنه كانت لي رغبة في العمل في مدارس أخرى، لا أعرف سبب هذا الشعور بالتحديد، ولكن ربما كنت أفضل العمل منذ البداية في مدرسة أخرى غير مدرسة القرية التي أسكن فيها، أو إيجاد بيئة أفضل وأكثر تعاوناً واحتراماً لشخصية المعلم وكيانه.

كذلك أتذكر موقفاً حدث معي في العام 2004، حيث قرر المعلمون اختيار معلم ليمثلهم ويكون منسق المدرسة في اتحاد المعلمين، وحضور جلسات التنسيق للمدارس، فقد تم ترشح ثلاثة معلمين كنت واحداً منهم. ومع أنني كنت معلماً لم يمض سوى عامين على تعيينه، والمعلمون الآخرون من القدامى، إلا أن المعلمين اختاروني بفارق أصوات عال جداً. أسعدني الأمر فقط لإجماع المعلمين عليَّ لا لشيء آخر.

وأخيراً ألاحظ أنه وبعد 9 سنوات من العمل في المجال التربوي، أشعر أن عطائي يتطور نسبياً عاماً بعد عام، إلا أن مدارسنا لا تزال تعاني من مشاكل وصعوبات شتى.

المشاكل والصعوبات تشمل كل البيئة المحيطة بعمل المعلم؛ ابتداء من عمل وزارة التربية والتعليم، ومديرية التربية والتعليم التي لا تزال ترهق كاهل المعلم بأعمال كتابية هي تعرف مسبقاً عدم جدواها، وأصبح هم المعلم هو إرضاء المشرف أو الموجه، والكل يجمع على تحميل المعلم أي مسؤولية عن تدني مستوى التعليم. كذلك للأسف، لا يوجد لدى المسؤولين حس بالمسؤولية وتغليب المصلحة

العامة، فالمهم عندهم أن تكون مدارسهم هادئة، غير آبهين بالمستوى التعليمي للطلاب، وإيجاد بيئة تعليمية أفضل، وأرى أن لزاماً علينا أن نفكر في أساليب ووسائل أخرى غير التي جربت للنهوض بالمستوى التعليمي في مدارسنا.

بالنسبة لي كطالب، درست في ثلاثة مدارس مختلفة (مدرسة قبيا الأساسية في حينها، ومدرسة ذكور نعلين الثانوية، ومدرسة بيتونيا الثانوية)، وقد كنت من الطلاب المتفوقين، كما أتذكر بعض المعلمين الذين قاموا بتدريسي منهم المعلم مالك الريماوي، وكان معلماً في بدايات العشرينيات عندما درسنا، ولهذا كان قريباً منا، وأذكر أنه أحضر لي كتاباً خارجياً لأقراه، وحينها كنت في الصف الثامن، ومع أني قرأته مرتين إلا أنني لم أفهمه جيداً في ذاك الوقت، وكان عن تطور الحركات الوطنية في فلسطين. وكذلك من المعلمين الذين أعجبني أسلوبهم، وتأثرت بهم المعلم سامي السايس، أستاذ الفيزياء في مدرسة بيتونيا، فقد أنهيت دراستي المدرسية بمعدل 87، والتحقت بجامعة بيرزيت، وتخرجت منها حاملاً بكالوريوس إدارة إعمال. وبصراحة، لم أكن أخطط للعمل في وظيفة معلم في البداية، ولكن لظروف التخرج مع بداية الانتفاضة الثانية، توظفت معلماً في مكان سكني، ولكني الآن أحب هذه المهنة، إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل في مهنة لا يحبها.

إبراهيم الأجرب
مدرسة ذكور قبيا الثانوية – رام الله

عبد المحسن القطان خلال حضوره ورشة توظيف الرسوم المتحركة في التعليم.